محمد مهدي الآصفي*

الغربة والاغتراب

ملخّص

في الأحاديث والروايات ثناء على الغربة والترغيب فيها. والغربة مذمومة إن كانت عزلة عن الناس وابتعاداً عن المجتمع، غير أنها ممدوحة إذا اقترنت بمقاومة الوسط الاجتماعي الفاسد وبعدم الانصهار فيه. والمذموم من الغربة ما يشعر به الإنسان المعاصر تجاه الحضارة المادية المحيطة به، فهو يشعر بالغربة مع نفسه، ومع هذا المجتمع الذي لا ينتمي إلى ما في فطرته من قيم وعاطفة. والغربة المحمودة متحققة في عصرنا بعد عودة الجاهلية إلى الحياة. كما أن ثمة أنواعًا أخرى من الغربة يمكن أن يعيشها المسلم اليوم مثل الغربة عن الوطن على خلفية الجهاد في سبيل الله، والغربة الحضارية وهي الصمود أمام انحرافات المجتمع من خلال تحصين النفس أمام المغريات والانزلاقات. وثمة غربة أخرى هي غربة «الخمول» وهي في معناها الايجابي ابتعاد الإنسان عن الاستهلاك في الأضواء والشهرة والجاه والمنصب. وأما الغربة عن الناس فمعناها الايجابي هو أن يعيش مع الناس بجسمه لكن قلبه متعلق بالله تعالى.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١٠٠)

---

* - مفكر وعالم ديني من النجف الأشرف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ـ الروايات الواردة في الغربة

الروايات الواردة في الغربة والاغتراب متواترة لفظًا ومعنى من طرف الفريقين وفيما يلي إشارة إلى بعض من هذه الروايات:

١ـ في نوادر الراوندي عن جعفر بن محمد(ع) عن آبائه(ع) قال: قال رسول(ص):«إنّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء، فقيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس، إنّه لا وحشة ولا غربة على مؤمن، وما من مؤمن يموت في غربته إلاّ بكت عليه ملائكة السماء، رحمة له، حيث قلّت بواكيه، وفسح له في قبره بنور يتلألأ من حيث دفن إلى مسقط رأسه»[١].

٢ـ الإمام الصادق(ع)ـ لما سئل عن قول الرسول(ص)(ع): «الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما كان، فطوبى للغرباء ـ : يستأنف الداعي منا دعاء جديدًا كما دعا إليه رسول الله(ص)»[٢].

٣ـ في مكارم الأخلاق في مواعظ النبي(ص) لابن مسعود: «يا ابن مسعود الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء»[٣].

٤ـ وفي تفسير فرات بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾[٤]، عن خيثمة عن أبي جعفر(ع): «يا خيثمة إن الإسلام بُدأ غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء»[٥].

٥ـ وفي حديث الإمام الرضا(ع) عن رسول الله(ص) للمأمون: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء، قيل: يا رسول الله ثم ماذا يكون؟ قال: ثم يرجع الحق إلى أهله»[٦].

٦ـ وفي إكمال الدين عن السكوني عن الصادق(ع) عن آبائه(ع): «إنّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء»[٧].

٧ـ وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال: قال رسول الله(ص): «إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: النزاع من القبائل»[٨].

٨ ـ وفي حديث عبد الله بن عمر: قال النبي(ص) ذات يوم ونحن عنده: «طوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل في ناس كثير، ومن يعصهم أكثر ممّن يطيعهم»[٩].

٩ـ وعن عبد الله بن عمر قال: «إنّ أحب شيء إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم، يجتمعون إلى عيسى بن مريم(ع) يوم القيامة»[١٠].

١٠ ـ وفي حديث آخر عن رسول الله(ص): «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سُنّتي ويعلّمونها الناس»[١١].

٢ـ معنى الغربة في الروايات

الغربة: في مقابل الألفة والأنس.

ومعنى الحديث: إن الإسلام بدأ منذ أول يوم غريبًا لا يعرفه أحد، وتنكّر له الناس، وتنكّر الناس للتوحيد ولقيم التوحيد، وكان المسلمون قلّة ومطارَدين وملاحَقين ويعذَّبون.

و قد بلغت هذه المواجهة قمتها في مقاطعة قريش للنبي(ص) وأهل بيته وأصحابه فترة من الزمن في شعب أبي طالب، تحمل المسلمون خلالها كثيرًا من الأذى والعنت.

ثم أصبح الإسلام معروفًا للناس واستقبله الناس ودخلوا فيه أفواجًا، وفتح الله لهم الأرض... وبذلك انتهت المرحلة الأولى من الغربة.

وسيعود الإسلام إلى غربته مرة أخرى.

وفي تفسير معنى الغربة الواردة في الروايات السابقة يقول الجزري: أي أنه كان في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أول أمره كالغريب الوحيد الذي لا أهل له عنده، لقلّة المسلمين يومئذٍ وسيعود غريبًا كما كان، أي يقل المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغرباء، «فطوبى للغرباء»، أي الجنة لأولئك المسلمين الذين كانوا في أول الإسلام، ويكونون في آخره، وإنما خصّهم بها لصبرهم على أذى الكفار، أولاً وأخرًا ولزومهم دين الإسلام[١٢].

الغربة المحمودة والغربة المذمومة:

والغربة ليست مطلوبة، ولا محمودة إذا كانت بمعنى الوحشة والانفراد والفرار من المجتمع، وهذه الغربة هي التي يعاني منها الإنسان المعاصر ويشعر بها تجاه الحضارة المادية المحيطة به، فهو يشعر أنه غريب عن نفسه، غريب عن هذا الإنسان الذين يمثله في التحرّك في المجتمع، وغريب عن مجتمعه وحضارته، هذه الحضارة التي تتنكر لقيمه وأخلاقه وفطرته وضميره وعاطفته، وأنّه ليس هناك ما يربط بينه وبين هذه الحضارة وهذا المجتمع فهو شيء آخر ليس من سنخ تكوينه وشخصيته الحقيقية التي يعمل هذا المجتمع على عزلها وضمورها.

الغربة هنا، هي حالة عدم الانسجام بين فطرة الإنسان وتكوينه الذي خلقه الله تعالى عليه وبين الوسط الذي يعيش فيه، وبينه وبين نفسه.

وهذه الغربة هي الغربة المذمومة في الإسلام، وهي من مصائب الإنسان في الحضارة المادية.

إن الحضارة المعاصرة تعتمد المادة، بشكل واسع، وتتنكر للغيب وللإيمان بالله وللعبودية لله وللروح وللقيم الروحية... وتبنى فيها العلاقات الاجتماعية على أسس مادية بحتة... والإنسان المعاصر يشعر أنه يعيش في وسط غريب عن تكوينه وفطرته، وأن هذه الحضارة لا تستجيب لفطرته وتكوينه، ويحسّ بفجوة عميقة تفصله عن الوسط الذي يعيش فيه، ويشعر أنه غريب عن هذا الوسط، ويشعر أنه غريب حتى عن نفسه، لأنه هو أيضا يتحول بالتدريج إلى عنصر من العناصر التي تكوّن الوسط الذي يعيش فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيشعر بالنفور والغربة عن نفسه وعن الوسط الحضاري الذي يعيش فيه.

وهذه هي الغربة المذمومة التي يرفضها الإسلام ويكافحها، ويدعو إلى الانسجام التام بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان والوسط الحضاري الذي يعيش فيه.

إن هذه الغربة تنطوي على أمرين:

أولاً ـ الاستسلام للواقع الفاسد القائم في الوسط الاجتماعي وعدم التصدي لتغييره وهدمه وبنائه... فيتحول الإنسان إلى جزء من أجزاء هذه الحضارة.

وثانيًا ـ الإحساس بالغربة وعدم الانسجام.

ولا يعارض الثاني الأول؛ فإن الإنسان عندما يستسلم للواقع الاجتماعي ويتحول إلى بعض مكوّنات الواقع الاجتماعي لا يفقد تكوينه وفطرته بالكامل، فيبقى يشعر شعورًا فطريًا بالفجوة العميقة بينه وبين الوسط الاجتماعي الذي لا يستجيب لفطرته وتكوينه الذي خلقه الله عليه، ويشعر بالغربة تجاه الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه كما يشعر بالغربة عن نفسه أيضًا، لأنه هو أيضا قد أصبح جزءاً من مكوّنات هذه الحضارة، فينفر من الحضارة التي يعيش فيها ويكرهها ويكره نفسه، ويتمرد على هذه الحضارة ويتمرد على نفسه، ويحاول أن يتهرّب عنها وعن نفسه باللجوء إلى المخدرات، وهذا حديث طويل ومن مصائب الإنسان في الحضارة المادية.

وأما الغربة المحمودة فهي تقترن دائما بالمقاومة وعدم الانصهار في الوسط الاجتماعي.

إن الغربة هي الغربة، المذمومة منها، والمحمودة، وهي حالة عدم الانسجام بين مكونات الفطرة ومكونات الحضارة التي يعيشها الإنسان.

والفرق بينهما أن الغربة المذمومة تفقد حالة المقاومة، وتتحول من الفعل إلى الانفعال في السخط على الحضارة المادية والتمرد عليها والتهرب منها.

وأمّا الغربة المحمودة فتتحول إلى فعل في التصدي لتغيير الواقع الاجتماعي ومقاومته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للانصهار في الوسط الحضاري، وهدمٍ وبناءٍ لإعادة بناء الحضارة الإنسانية على أسس متطابقة مع الفطرة الإنسانية.

وهذه النقطة بالذات هي سرّ قيمة الغربة المحمودة.

إنّ قيمة هذه الغربة تعود إلى أنّ هؤلاء الغرباء يحملون هموم هذه الرسالة في ظروف غربة الإسلام، وعندما تنحسر قيم هذا الدين عن الساحة يبقى هؤلاء الغرباء ثابتين صامدين، وهذا الثبات في ظروف غربة هذا الدين هو سبب عودة هذا الدين إلى الحياة من جديد، وهؤلاء الغرباء هم الذين يحفظون الإسلام يومئذٍ، كما حفظوا الإسلام في اليوم الأول لظهوره في مكة.

غربتان للإسلام:

يظهر من أحاديث: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا، فطوبى للغرباء». أن للإسلام غربتين:

الغربة الأولى في الصدر الأول من الإسلام.

والغربة الثانية في عصر ما قبل ظهور المهدي المنتظر(ع) ثم بعد ذلك يعود الحق إلى أهله.

والغربة الثانية تكون كالغربة الأولى، صدود من قبل الناس وتنكّر لمفاهيم الإسلام، ويمكن أن تكون الغربة الأولى بسبب صدود الناس وتنكّرهم للإسلام وللتوحيد، ومحاربة مفاهيم الإسلام ورفضها، والغربة الثانية بسبب تحريف الإسلام ومفاهيمه وأحكامه.

فالغربة الأولى بسبب الإعراض والإنكار والغربة الثانية بسبب التأويل والتحريف، والنيل من نقاوة الفكر الإسلامي وأصالته، وتشويش الساحة الإسلامية بإثارة المشاكل الفكرية فيها، وخلق جو من الاضطرابات والقلق الفكري في هذه الساحة، وإيجاد أقليات عقائدية وفكرية في المجتمع الإسلامي... كالفرق المنحرفة من الصوفية، ومثل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القاديانية، والشيخية، والغلاة والبابية، والبهائية، والنواصب والأغاخانية، وغيرهم.

ونحن نعتقد أن الغربة الثانية متحقّقة في عصرنا، ونرى تشابهًا كبيرًا بين الغربة الأولى للإسلام في صدر الإسلام وغربة عصرنا في الأفكار والشعارات والدعوة للجاهلية، ونرى عودة الجاهلية إلى الحياة، وانحسار قيم الإسلام عن الساحة الاجتماعية في مساحة واسعة من العالم الإسلامي.

ولكن الفرق بين الغربتين أنّ الغربة الأولى عن قلّة وهذه الغربة عن ضعف وليس عن قلّة.

روى أحمد في المسند عن ثوبان مولى رسول الله(ص): «توشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها، قال: قلنا يا رسول الله: أمن قلّة يومئذٍ؟ قال: أنتم يومئذٍ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن، قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[١٣].

وهذا الحديث يوضح معالم الغربة الجديدة، وإنها تختلف عن الغربة الأولى اختلافًا جوهريًا؛ فالغربة الأولى من قلّة حينما كان المسلمون جماعة صغيرة مطاردة وملاحقة في مكة، والغربة الثانية، عن ضعف في نفوس المسلمين.

٣ـ الأقسام الأربعة للغربة

وللغربة أقسام أخرى هي غربة الوطن، الغربة الحضارية، غربة الخمول، وغربة الأنس بالله.

والغربتان الأولى والثانية، قهريتان، والثالثة والرابعة اختياريتان.

١ـ الغربة عن الوطن.

الهجرة حالة قديمة في كلّ رسالات الله تعالى، لأن كلّ دعوة إلى التوحيد تواجه بقوة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعنف من قبل المستكبرين لاستئصالها.

ولكي يسلم حَمَلة الدعوة من فتنة العذاب والاضطهاد، والبطش والفتك، وتسلم الدعوة من خطر الاستئصال لابدّ من «الهجرة» حتى تتمكن «الدعوة» من أن تستقر على الأرض، وتتكون سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا.

إنّ الهجرة، ليست بحثًا عن الأمن فقط، وإنّما هي أيضًا بحث عن الوسط الملائم لتكوين الجماعة المسلمة... وليست فرارًا من العدو بقدر ما هي بحث وسعي للوصول إلى موقع أفضل للانطلاق إلى مواجهة خصوم الدعوة، التي لابدّ منها على كل حال، وفي كل الحسابات.

وفي الهجرة يتم إعداد هذه الجماعة الفتية للمواجهة المسلحة، التي لابدّ منها على كل حال في العلاقة بينها وبين أئمة الشرك.

ومعاناة الغربة، عن الوطن معاناة شديدة يعرفها من قاساها، حيث يفقد الإنسان كل علاقاته الاجتماعية، وما ألفه وأنس به مرة واحدة.

ولهذه الغربة قيمة كبيرة عند الله.

عن رسول الله(ص): «من هاجر في سبيل الله كان مع إبراهيم(ع) في الجنة».

استمرار الهجرة:

والهجرة لا تنقطع لعدم انقطاع أسبابها من الدعوة إلى الله تعالى ومقاومة المستكبرين وجهادهم.

عن رسول الله(ص): «أيها الناس، هاجروا وتمسّكوا بالإسلام فإنّ الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد»[١٤].

وعن رسول الله(ص): «لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقاتل»[١٥].

وعن جنادة بن أمية الازدي قال: هاجرنا على عهد النبي(ص) فاختلفنا في الهجرة فقال بعضنا: قد انقطعت، وقال بعضنا: لم تنقطع، فدخلت على رسول الله(ص) فسألته عن ذلك فقال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»[١٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واليوم حالة الهجرة واسعة، لأن حالة الهجرة تقترن مع الجهاد (ما قوتل الكفار) فلما عادت المواجهة مع الكفر عادت الهجرة من جديد، واتسعت دائرة الهجرة والغربة عن الوطن.

ولصعوبة الغربة ومعاناتها الشديدة عَدّ رسول الله(ص) الموت في الغربة من الشهادة في سبيل الله.

عن رسول الله(ص): «موت الغربة شهادة»[١٧].

وعن رسول الله(ص): «وما من مؤمن يموت في غربته إلاّ بكت عليه ملائكة السماء رحمة له، حيث قلّت بواكيه، وفسح له في قبره، بنور يتلألأ من حيث دفن إلى مسقط رأسه»[١٨].

ومن يمت في الغربة، يقع أجره على الله.

يقول تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[١٩].

لمّا خرج رسول الله موسى(ع) هاربًا من فرعون وقومه إلى (مدين) على الحالة التي ذكرها الله وهو غريب خائف جائع، فقال: يا رب، وحيد مريض غريب.

«أوحى الله إليه: يا موسى الفقير من ليس له مثلي كفيل، والمريض من ليس له مثلي طبيب، والغريب من ليس له مثلي مؤنس»[٢٠].

الأخطار التي تهدد الهجرة في عصرنا:

والهجرة اليوم حالة واسعة، تهددها أخطار حقيقية مثل خطر التغريب.

إنّ الهجرة إلى الغرب اليوم تحمل خطر الانصهار والاندماج الحضاري في الغرب للجالية المسلمة.

وعلى أصحاب الرأي والحل والعقد اليوم في العالم الإسلامي أن يحموا المسلمين من خطرين حقيقيين: ملاحقة الحكام الظالمين واضطهادهم لهم في أوطانهم، والانصهار في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأقطار الغربية التي تأوي إليها الجالية المسلمة فراراً من اضطهاد الحكام، وأحيانا فراراً من الضائقة الاقتصادية في بلادهم.

٢ـ الغربة الحضارية

الغربة الحضارية حصلت بعد الغزو الحضاري لأوطاننا وبيوتنا فأصبحنا غرباء في أوطاننا وبيوتنا.

وهذه الغربة ليست من قبيل الاغتراب عن الأهل والوطن وإنما حصلت لنا في أوطاننا وبلادنا وبين أهلينا وذوينا.

إن المسلم اليوم غريب في وطنه، يشعر بأن الجو الذي يحيطه غير الجو الذي يألفه ويطمئن إليه، وأن الثقافة التي يتلقاها في المدرسة والجامعة ومن خلال محطات البثّ، والتلفاز والصحافة شيء آخر غير ثقافة الإسلام... ويشعر أن المفاهيم الإسلامية والمصطلحات والأعراف والأخلاق والقيم والآداب الإسلامية أصبحت غريبة في بلاد المسلمين، وأن الإسلام غريب، والصلاة غريبة، والصوم غريب، والعفاف غريب.

ويشعر أنه يعيش في جوّ ثقافي وحضاري لا يألفه، وهو في وطنه وبين أهله وذويه.

فينقلب المعروف منكراً والمنكر معروفًا، والقيم إلى أضدادها في مثل هذه الأجواء الغريبة، وذلك إذا تحول المسلم إلى شريحة من هذا المجتمع وهذه الحضارة، بأعرافها وأخلاقها وقيمها الجاهلية، فهذه هي الغربة المذمومة.

وأمّا إذا احتفظ المسلم بسلامة عقله وروحه وأخلاقه وثقافته، واحتفظ بحدود الله، ولم يدخل فيما يدخل فيه الناس، وتصدى للتغيير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يجرفه التيار، وحاول أن يغير مجرى التيار... فهذه هي الغربة المحمودة لقد بعث الله ورسوله(ص) ليعيد الناس إلى فطرتهم الأولى يوم خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان على الفطرة... فغيّر رسول الله(ص) الأفكار والأخلاق والقيم والمفاهيم والتصورات وقوانين الحياة إلى هيئتها وشكلها الأول يوم خلق الله الإنسان، بفطرته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السوية... في عالم كله جهالة، وانحراف عن خط الفطرة، جاهلية في الثقافة والأخلاق والعلاقات ونظام الحياة ونظام التربية.

عن رسول الله(ص): «طوبى للغرباء»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «ناس صالحون قليل في ناس كثير، ومن يعصهم أكثر ممّن يطيعهم».

وفي حديث آخر: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يحيون سنتي ويعلمونها للناس».

في هذه الغربة يصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، عندئذ يتحول الصالحون إلى غرباء ويكون القابض على دينه كالقابض على الجمر.

وقد روي عن رسول الله(ص) في غربة الإسلام الأولى أنه كان يقول: «إن الزمان والسماوات قد استدارا كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض»[٢١].

كان المسلمون يعيشون في غربة كاملة، حتى انتشر الإسلام وترسّخت مفاهيمه وتحوّلت الغربة إلى أنس وألفة وتطابق مع الوسط الاجتماعي الذي تجسدت فيه قيم الإسلام وتصوراته وأفكاره ـ في بعض الحدود.

فأصبح القاضي يحكم بالقرآن، والمساجد ترفع الآذان لإقامة الصلاة، وأصبح الحجاب عرف شايع، لا ينكره أحد، وبكلمة واحدة أصبح الواقع إسلاميًا، بشكل تام، وصار المسلم يشعر بالانتماء النفسي إلى هذا الواقع، وبذلك انتهت فترة الغربة... ثم انحسر الإسلام من الساحة واشتد الانحسار حتى أصبحنا غرباء في بلادنا، غرباء في صلاتنا وثقافتنا وأخلاقنا ومصطلحاتنا وأعرافنا ولغتنا ودعائنا.

ونحن نجد فيما روي عن حديث رسول الله(ص) إشارة إلى هذا الانقلاب الفكري والثقافي والحضاري في العصور الأخيرة للإسلام باتجاه معاكس للإسلام وإليك بعض هذه الروايات:

عن رسول الله(ص): «يأتي على الناس زمان وجوههم وجوه الآدميين وقلوبهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلوب الشياطين كأمثال الذئاب الضواري سفاكون للدماء، لا يتناهون عن منكر فعلوه، وإن تابعتهم ارتابوك، وإن حدثتهم كذّبوك، وإن تواريت عنهم اغتابوك، السنّة فيهم بدعة، والبدعة فيهم سنّة، والحليم بينهم غادر، والغادر بينهم حليم، والمؤمن فيما بينهم مستضعف، والفاسق فيما بينهم مشرّف... فعند ذلك يحرمهم الله قطر السماء في أوانه، وينزله في غير أوانه، ويسلط عليهم شرارهم، فيسومونهم سوء العذاب، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم»[٢٢].

وفي بعض الأحاديث أن المنكر يكون معروفًا والمعروف يكون منكرًا[٢٣]، إشارةً إلى الانقلاب في القيم والمواقف والأعراف.

وطبيعي في مثل هذه الأحوال أن الإنسان الملتزم الذي يلتزم بصلاته وصومه وقيمه وأعرافه يكون كالغريب، فلا يكاد يخرج من بيته إلى الشارع وإلى الأوساط الاجتماعية وإلى محل عمله ومحل دراسته حتى يجد كل شيء على غير الهيئة التي يقررها الإسلام ويخطط له.

وليس شيء في قبل هذه الظروف الصعبة أفضل وأقرب إلى الله من أن يصمد إزاء هذا التيار ويحفظ نفسه وأهله من الانجراف معه، ويعمل على التصدي لهذا التيار لتغييره وتوجيهه بالاتجاه الصحيح، فهو كالصابر القابض على الجمر في معاكسته التيار، عن رسول الله(ص): «يأتي على الناس زمان الصابر منهم على دينه كالقابض على الجمر»[٢٤].

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله(ص): «يأتي على الناس زمان الصابر منهم على دينه له أجر خمسين منكم»[٢٥].

وهذا الأجر المضاعف، خمسين مرة، لمن يقاوم التيار ولا يستسلم له، ولا ينجرف معه... عندئذ يكون أجره أضعاف أجر الناس يوم يكون الجو إسلاميًا والثقافة إسلامية، خمسين مرة، ويكون حاله في الصبر والمقاومة وتحمل الظروف الصعبة كمن يقبض الجمرة بيده.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمنهج السليم في مواجهة هذه الظروف الصعبة أن يحصّن المؤمنون أنفسهم بأنفسهم، من خلال التجمعات الصغيرة بين المؤمنين أنفسهم، والاهتمام بحضور الاجتماعات الإسلامية الموجهة مثل صلاة الجماعة والجمعة ومجالس الدعاء ومجامع المؤمنين والمجالس التي تنعقد في مناسبات أهل البيت(ع)... هذه التجمعات الصغيرة تمنح المؤمنين حصانة تجاه الوسط الاجتماعي الفاسد... هذا أولاً.

وثانيًا: التعويض عن المؤسسات الاجتماعية الفاسدة مثل التلفاز والصحافة الفاسدة والسينما والمسرح بمؤسسات مشابهة لها سليمة، تؤدي نفس الهدف، بصورة سليمة وضمن حدود الله تعالى.

ومن أعظم العوامل التي تحصّن المؤمنين في مثل هذه الظروف الإيمان بالله، فإن الإيمان بالله يبدل استيحاشهم إلى أنس وألفة، ووحدتهم إلى ثبات وطمأنينة.

وقد كان أمير المؤمنين(ع) يخاطب الناس، ويدعوهم إلى أن لا يستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله...

«أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فإن الناس اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل»[٢٦].

ومثل هذه المائدة (التي شبعها قصير وجوعها طويل) لا ينبغي أن تصرف المؤمنين عن المائدة الإلهية إلى أعدّها الله تعالى للمؤمنين... إن المائدة الحقيقية التي ينبغي أن يجتذب المؤمنين هي مائدة القرآن، وإن قلّ من يرتادها.

وعليهم أن يعرفوا دائمًا أن الإيمان حالة نادرة عزيزة، وأن المؤمنين، في مثل هذه الأوساط قلة نادرة عزيزة فلا توحشهم القلة، ولا يستوحشونها.

عن قتيبة الأعشى قال سمعت أبا عبد الله الصادق(ع) يقول: «المؤمن اعز من الكبريت الأحمر فمن رأى منكم الكبريت الأحمر؟»[٢٧].

وإذا كان الأمر كذلك، فلا محالة يكون المؤمن غريبًا في مثل هذه الأوساط.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن كامل التمار قال: سمعت أبا جعفر(ع) يقول: «والمؤمن غريب، ثلاث مرات»[٢٨].

٣ـ غربة الخمول

النوع الآخر من الغربة (الخمول)، وهي غربة اختيارية محمودة يبتعد فيها الإنسان المؤمن عن أسباب الشهرة والأضواء، فإن الأضواء الاجتماعيّة والسياسيّة والسمعة والاشتهار عند الناس، إذا لم تكن خالصة لوجه الله تعالى، تستهلك الإنسان لا محالة، وتستهلك اهتماماته، وتشغله عن الله تعالى شاء أم أبى... والاشتهار محرقة للعمر، ومجهود، إلاّ أن يكون في سبيل الله.

ومن هنا كان الصالحون من عباد الله يحرصون على تجنب الشهرة إذا أدت إلى الإخلال في علاقتهم بالله، وكانوا يحرصون على الابتعاد عن أسباب الشهرة حتى لا يشغلهم الناس عن الله، ولا يجد الشيطان إلى نفوسهم طريقًا، فإن في الشهرة والأضواء ثغرات كثيرة للشيطان إلى نفس الإنسان ومزالق كبيرة كالعجب والغرور والحسد ومراقبة الناس، فإن الاختلاط الكثير بالناس يؤدي إلى مراقبة الناس، ويشغل الإنسان عن الله وعن نفسه إلى اهتمامات وضيعة وحقيرة، يقول تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٢٩]، وإنما يمنعنا الله تعالى من أن نمدّ عيوننا إلى ما متع الله به عباده لأنه يشغل الإنسان عن الله.

وهذه ليست دعوة للابتعاد عن الحياة الاجتماعية، واعتزال الناس وإنما هي دعوة إلى الاقتصاد في الاختلاط بالناس وتجنب الإسراف في الظهور والبروز في المجتمع ومخالطة الناس من غير ضرورة فإنها تحمل هذه السلبيات إلى الإنسان مهما حاول الإنسان أن يتنزه عنها.

وأهمّ هذه السلبيات أنّ الشهرة وما يستتبعها من الالتزامات الاجتماعية استهلاك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للعمر والوقت، وتعريض للمزالق، والفتن، كالدخول في الحسد والغيبة وبغضاء المؤمنين والتنافر وأمثال ذلك من الابتلاءات الكثيرة.

ونكرر مرة أخرى إن هذه التعليمات ليست بمعنى أن يعتزل الإنسان الناس والمجتمع... فهي حالة لا يُرغّب إليها الإسلام بالتأكيد، وفي النصوص الإسلامية ورد تأكيد كثير على الدخول مع الناس والاختلاط بهم والحضور في مجامعهم.

ولكن على أن يتم ذلك في غير إسراف، وان يتجنّب الإنسان تجمعات الفارغين والبطالين والفاسدين، أن يحرص الإنسان على عمره ووقته أن يهدره في مثل هذه الاجتماعات.

عن رسول الله(ص): «إنّ الله يحب الأبرار الاخفياء الأتقياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يُدعوا ولم يُعرضوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»[٣٠].

وعن رسول الله(ص): «ما قرب عبد من سلطان إلاّ تباعد من الله تعالى، ولا كثر ماله إلاّ اشتدّ حسابه، ولا كثر تبعه إلاّ كثر شياطينه»[٣١].

وعن الإمام الصادق(ع): «إنّ قدرتم ألاّ تعرفوا فافعلوا، وما عليك أن لم يثن عليك الناس؟ وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس؟ إذا كنت عند الله محمودًا»[٣٢]؟!

فكما أن الإسلام لا يدعو إلى الرهبانية بمعنى الانزواء، والهروب من الواقع كذلك لا يدعو إلى الاستغراق في مخالطة الناس والإسراف فيه، ويدعو إلى اجتناب المجالس والمحافل والاجتماعات التي تبعد الإنسان عن الله تعالى.

عن عبد الله بن سنان قال: قال: أبو عبد الله(ع): «طوبى لعبد نومة، عرف الناس فصاحبهم ببدنه، ولم يصاحبهم في أعمالهم بقلبه، فعرفوه في الظاهر وعرفهم في الباطن»[٣٣].

وعن الإمام علي(ع) ـ في وصف آخر الزمان ـ: «وذلك زمان لا ينجو فيه إلاّ كل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مؤمن نومة، إن شهد لم يُعرف، وإن غاب لم يُفتقد، أولئك مصابيح الهدى وأعلام السرى. ليسوا بالمساييح ولا بالمذاييع، أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته ويكشف عنهم ضرّاء نقمته»[٣٤].

قال الشريف الرضي في شرح كلمة الإمام(ع): «كل مؤمن نومة» إنما أراد به خامل الذكر، والمساييح جمع مسياح الذي يسيح بين الناس بالفساد والنمائم، والمذاييع جمع مذياع وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها ونوّه بها[٣٥].

عن الأزدي قال: قال أبو عبد الله(ع): «إنّ من أغبط أوليائي عندي عبد مؤمن ذو حظ من الصلاح، وأحسن عبادة ربه، وعبَدَ الله في السريرة، وكان غامضًا في الناس، فلم يشر إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافًا فصبر عليه، تعجلت به المنية، فقل تراثه وقلت بواكيه»[٣٦].

يقول سفيان الثوري سمعت الإمام جعفر الصادق(ع) يقول: «عزّت السلامة، حتى لقد خفي مطلبها، فإن يكن في شيء فيوشك أن يكون في الخمول»[٣٧].

وأمير المؤمنين(ع) له كلمات دقيقة في الخمول.

يقول(ع): «كثرة المعارف محنة، وكثرة خلطة الناس فتنة»[٣٨].

يعني أن الاشتهار بين الناس يجرّ الإنسان إلى الكثير من المحن، والمخالطة الشديدة للناس تجرّ الإنسان إلى الكثير من الفتن.

عن رسول الله(ص): «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه»[٣٩].

ولكن هاهنا حافة الانحراف والحافة الخطيرة للانحراف، والمزالق وعلينا أن نوضح النقاط التالية لأننا في هذه النقطة على حافة خطرة يكثر الانزلاق منها:

١ـ لا نقول إنّ الحياة الاجتماعية بشكل عام مذمومة، لأن الحياة الاجتماعية والتعاون على البر والتقوى مما يأمر الله تعالى به، وقد أمرنا الله بالتعاون والتبار وصلة الأرحام والتقوى وزيارة المؤمنين، والتواصل وأداء حقوق الجيران وعيادة المرضى،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقضاء حاجات المؤمنين، وهذا كله مما يريده الله، ولذلك لم ندع إلى الاعتزال عن الحياة الاجتماعية، وإنما الدعوة إلى الابتعاد عن الأضواء إذا شعر الإنسان إنّها تبعده عن الله تعالى.

وأمّا الدخول في المجتمع من أجل خدمة الناس، والصبر على الناس، والصبر على ما يكره من الناس، لا ابتغاء ما يحبّ من الناس من الاحترام، هو من أفضل الأعمال، والفرق بينهما دقيق، وهذه المخالطة من المخالطة المحمودة.

عن رسول الله(ص): «الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[٤٠].

وقال رسول الله(ص) ـ لرجل أراد الجبل ليتعبد فيه ـ: «لصبرُ أحدكم ساعة على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خاليًا أربعين سنة»[٤١].

٢ـ يدخل الإنسان المجتمع والعلاقات الاجتماعية بقدر ما ينفع، ويفيد، ويخدم أفراد المجتمع، أما إذا كان دخوله بطرًا، ورئاء الناس فلابدّ له أن يتجنبه لأنه مضيعة للعمر، وزينة وتفاخر وتكاثر.

يقول تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾[٤٢]، ولا ينبغي للمؤمن أن ينحدر إلى هذا الوجه من وجوه الحياة الدنيا: اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر.

إنّ هذا الوجه من الحياة الاجتماعية والعلاقات مذموم وهو وجه التفاخر والتكاثر والبطر والرئاء...

٣ـ الابتعاد عن الأضواء السياسية والاجتماعية إذا كانت هذه الأضواء تجلب الفساد والفتنة في حياة الإنسان، لأن هذه الأضواء تأتي مع الموقع والسلطان، وقد سمعنا الرواية عن رسول الله(ص): إنّ القرب من السلطان بعد عن الله وقرب من أشراك الشيطان، وهذا هو الوجه السلبي المذموم للسلطة، أمّا الوجه الإيجابي للسلطة، فهو أن يطلب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الموقع ليقيم الحق ويدحض الباطل ويكتسب بذلك مرضاة الله وذلك عندما يُجرد نفسه لخدمة الناس، وليس لما يجلب له الكبرياء والعجب والاحترام والإعجاب عند الناس.

فإن السلطة من أجل إقامة الحق وخدمة الناس محمودة وذات قيمة، ومن هنا ورد في القرآن الدعاء بطلب السلطان إذا كان لهذه الغاية: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[٤٣].

وإنما تكون السلطة مذمومة إذا كانت من أجل البطر والرئاء والتظاهر والتكاثر.

يقول أمير المؤمنين(ع) في الخطبة المعروفة بالشقشقية: «أما والذي فلق الحبة وبرئ النسمة لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقارّوا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[٤٤].

يقول ابن عباس: دخلت على أمير المؤمنين بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: «ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها يا أمير المؤمنين، فقال(ع): والله لهي أحب إليّ من إمرتكم إلاّ أن أقيم حقًا أو أدفع باطلاً»[٤٥].

إذا أخذنا بنظر الاعتبار هذه النقاط الثلاث عرفنا الإطار الشرعي للخمول المحمود والاعتزال المذموم في الشريعة، وما ورد في فضل الخمول ناظر إلى هذه النقاط.

٤ـ الغربة في الدنيا عن الناس

وهذا هو النمط الرابع من الغربة، وأصحابها يعيشون في الدنيا كما يعيش سائر الناس، من غير فرق، ولكن قلوبهم متعلقة بالآخرة.

وقليل من الناس أولئك الذين يُحسنون أن يعيشوا الآخرة في الدنيا... إنما الناس في الغالب من تستغرقهم الدنيا، فينقطعون عن الآخرة وينسونها، من أهل الدنيا، وهم كثير، وأما من تستغرقهم الآخرة، فينقطعون عن الدنيا، من أهل الرهبانية والاعتزال، فهم قليل.

وأمّا الذين يعيشون الآخرة، ولا يقطعهم عيش الآخرة عن الحياة والحركة في الدنيا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في وسط الناس، فهم أقل من القليل، أولئك هم الذين يتحركون مع النـاس في الأسـواق وقلوبهم متعلقة بالله، وكأنهم غرباء عن الناس، وهم مع الناس، وتلك هي الغربة.

عن رسول الله(ص): «كن في الدنيا كأنك غريب»[٤٦].

وهذه هي الغربة الاختيارية، التي يكتسبها الإنسان باختياره لأنه يتعمد الاستيحاش من الناس وعدم الاسترسال في العلاقات الاجتماعية التي تصرفه عن علاقته بالله.

وهي تتكون من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: الأُنس بالله والاشتغال بذكر الله.

والوجه الثاني: الانقطاع عن الناس، والاستيحاش من الناس، وعندما يحصر الإنسان اهتمامه بالله وذكر الله ينصرف عن الناس بصورة طبيعية.

والوجه الثالث: التقلب مع النـاس في الـسراء والـضراء في الأسـواق والأعمـال وفي السلم والحرب فهو يعيش في وسط الناس مثلهم، يمارس حياتـه بـشكل طبيعـي، كمـا يمارسون حياتهم، يتحرك في السوق، ويدخل البيـت لخدمـة أهلـه، ويعمـل، ويتـزوج، ويتحرك في الأسواق مثل سائر الناس، ولكن ما يميزه عن الناس ويفصله عنهم أن قلبـه متعلق بالله تعالى، وليس مع الناس في الدنيا.

ورد عن أمير المؤمنين(ع) في هذا المعنى:«صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقـة بـالملأ الأعلى»[٤٧].

وكان يقول أحدهم: «منذ ثلاثين سنة، أعيش مـع النـاس ولـستُ معهـم»، لتعلّـق قلبه بالله.

فهو يعيش مع الناس ولكن قلبه قد عزف عن الدنيا والناس.

عن أبي عبد الله(ع) قال: «إنّ رسول الله(ص) صلّى بالناس الصبح ذات يـوم فنظـر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرًا لونه، قد نحـف جـسمه وغـارت عيناه في رأسه، فقال لـه رسول الله(ص): كيف أصبحت يـا فـلان، قـال: أصـبحت يـا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رسول الله موقنًا، فتعجّب رسول الله(ص) من قوله، وقال: إنّ لكل يقين حقيقة (علامة) فما حقيقة يقينك؟ قال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها»[٤٨].

ويقول أمير المؤمنين(ع) في صفة المتقين: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»[٤٩]... وإذا صغرت الدنيا في عين الناس، فلا تجتذب قلبه، ويبقى قلبه مع الله، وإن كان جسمه مع الناس في الأسواق والمجامع والمحافل.

الضوابط الشرعية للانقطاع عن الدنيا:

إنّ التعلق بالله تعالى يقطع الإنسان عن الدنيا، والتعلق بالدنيا يقطع الإنسان عن الله.

وهنا أيضا حافة دقيقة من حافات السقوط والانحراف، ولكي لا نقع في الانحراف الذي وقع فيه بعض أهل التصوف لابدّ أن نذكر هنا حقيقتين:

الحقيقة الأولى: إنّ التعلق بالله لا يعارض الاختلاط بالناس ومعاشرة الناس وإنما يعارض التعلق بالدنيا، فمن الممكن أن يعيش الإنسان في الدنيا وفي المجتمع، ويذهب إلى السوق والمدرسة والمعمل والدائرة ويعمل في السياسة، ولكن في نفس الوقت لا يكون متعلقًا بالدنيا، وعلامة التعلق الحزن والفرح، الحزن على فقدان الدنيا، والفرح بما يرزقه الله من الدنيا.

يقول تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٥٠].

يقول أمير المؤمنين(ع): «الزهد كله بين كلمتين من القرآن ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾»[٥١].

إنّ التعلق غير المخالطة والمعاشرة والدخول في الحياة الاجتماعية.

نعم، قد يكون المخالطة والمعاشرة والدخول في الحياة الاجتماعية مضراً بالتعلّق بالله إذا أسرف الإنسان في ذلك.

وقد كان رسول الله(ص) يعيش مع الناس، ويتفاعل مع همومهم، ويدخل السوق،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقابل الناس، وكان أقرب الناس إلى الله، ولم يتعلق قلبه بشيء من الدنيا قط.

والحقيقة الثانية: إنّ كل شؤون الحياة الدنيا كالدراسة والتجارة والسياسة والقتال والزواج والأكل والنوم والشرب والاختلاط والمعاشرة يمكن أن يقوم بها الإنسان في امتداد التعلق بالله، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥٢].

فيكون كل ذلك في امتداد مرضاة الله، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ أمثال هذه الممارسات ليس فقط لا تقطعه عن الله، ولا تحجبه عن الله، بل تعمّق حالة الإخلاص لله، وتعمّق حالة الإقبال على الله، من دون أن يحتجب صاحبه عن الحياة الدنيا، وقد كان رسول الله(ص) يحكم، ويقاتل، ويخالط الناس، ويبيع ويشتري، دون أن يكون لشيء من ذلك أثر سلبي على قلبه في الإخلاص والإقبال على الله، وقد كان رسول الله(ص) في القمّة من الإخلاص والإقبال ومن أقرب الناس إلى الله.

وإذا تبيّنت هاتان الحقيقتان. أقول: إنّ هذه غربة رابعة، وهي أن يعيش الإنسان في الدنيا وليس فيها قلبه، غريب عن الناس وهو في وسط الناس يتعامل مع الناس وليس مع الناس.

والناس يعيشون في الدنيا على نحوين: النحو الأول من الناس، أولئك الذين يعيشون في الدنيا بقلوبهم وأجسامهم وعقولهم، والنحو الآخر، الذين يعيشون في الدنيا بأجسامهم وعقولهم وليس بقلوبهم.

ولتوضيح هذه النقطة نقول: (يعيشون مع الناس بأجسامهم) اعني: أنهم يخالطون الناس في مجالسهم ونواديهم وتجمعاتهم، (ويعيشون مع الناس بعقولهم) أي: إنهم يدخلون فيما يدخل فيه الناس من اكتساب الرزق والموقع في الأسواق وساحات المجتمع ضمن حسابات عقلية كما يدخل سائر العقلاء من أهل الدنيا، ولكن تبقى قلوبهم متعلقة بالله تعالى ولم تشغل الدنيا شيئًا من قلوبهم قط.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذه ميزتهم التي تفصلهم عن سائر الناس.

فالمتقون هم الذين يعيشون في الدنيا بأجسامهم وعقولهم، فهم «حلماء علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا! ولقد خالطهم أمر عظيم»[٥٣]، (خولطوا) أي خالطهم الجنون، كالعاشق الولهان الذي يعيش مع الناس وقلبه عند من يعشق وهذا هو النحو الرابع من الاغتراب.

الوجه الآخر للغربة:

هذا الزهد والخمول والغربة، هو أحد وجهي القضية، وهو عمق القضية، أما الوجه الظاهر للناس فهو «المؤمن ألف مألوف»[٥٤]، «بشره في وجهه، وحزنه في قلبه،... هشاش بشاش، لا بعبّاس»[٥٥] يخالط الناس، ويؤدي حقوق المخالطة والمعاشرة من التزاور والتعاون والتسامح والعفو والحب، والناس صنفان «إما أخ لك في الدين وإمّا نظير لك في الخلق»[٥٦]، يحب الناس بل يحب الأشياء...

وقد كان رسول الله(ص) يسمّي سيوفه وملابسه وعمامته ودوابه فهو يأنس بالأشياء ويحبها... ويقول لجبل (أحد) وقد مرّ به: «هذا جبل يحبنا ونحبه»[٥٧].

بعكس الشعور «الوجودي»[٥٨] بالغربة والشعور «الإلحادي»[٥٩] بالغربة، فأولئك يشعرون أن القضاء والقدر (الأعمى) أوقعهم في مآسي الدنيا ومصائبها، فيكرهون الدنيا وأقدارها، ويمقتونها، وينفرون منها، ويشعرون بالغربة تجاهها، كما يشعر الإنسان بالغربة تجاه عدوّه، وهو من الغربة المذمومة التي يمقتها الله تعالى.

إن المؤمن يشعر تجاه الكون كله من الإنسان والحيوان والنبات والجماد، بالقرابة والوشيجة، والصلة العميقة.

فهو يؤمن بأن الله تعالى سخّر له هذا الكون، والكون كله بشمسه وقمره وسحابه وأمطاره ونباته وحيوانه ليخدمه، وإن الله تعالى جعل الناس كل الناس إما أخًا له في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدين أو نظيرًا له في الخلق.

فهو يشعر بالألفة تجاه هذا الكون.

وليس كذلك شعور «الوجوديين» تجاه الكون والمجتمع، فهم يشعرون بالغربة المعتمة في المجتمع... ومن لا يصدق فليقرأ[٦٠] ليعرف حقيقة التصور الوجودي عن الكون والإنسان.

وكذلك التصور الإلحادي عن الكون والإنسان لا يختلف عن تصور الوجوديين.

الانقطاع إلى الله عن الدنيا في كلمات علي بن الحسين(ع):

ونختم هذا البحث بالكلمات المروية عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين(ع)، في المناجاة الخامسة عشرة، وهي كلمات شفافة رقيقة، ولوحة فريدة ترسم العلاقة بالله تعالى في أجمل لوحة فنية من روائع الدعاء والمناجاة. فاستمعوا إليه(ع):

«فقد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فإنك لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبتي، وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك روحي وراحتي، وعندك دواء علّتي وشفاء غلّتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي، فكن أنيسي في وحشتي»[٦١].

والذي ينصرف إلى الله بمثل هذا الانصراف لا يتعلق قلبه بغير الله، يعيش مع الناس ولكن قلبه مع الله، ويدخل في السوق ويخرج إلى الحياة الواسعة، ولكن قلبه لا يزال متعلقًا مشدودًا بالله، ولا يفارقه ذكر الله في جميع أحواله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

● محمد مهدي الآصفي

الهوامش:

١ـ بحار الأنوار ٦٧: ٢٠٠.

٢ـ ميزان الحكمة ٤: ١٧٩٢، بحار الأنوار ٨: ١٢، ح١٠.

٣ـ مكارم الأخلاق: ٥١٩.

٤ـ الأنعام: ١٥٨.

٥ـ تفسير فرات الكوفي: ٤٤.

٦ـ بحار الأنوار ٢٥: ١٣٦.

٧ـ إكمال الدين ١: ٣٠٨.

٨ ـ الغرباء للآجري: ٢٤، النزاع من القبائل: جمع نازع ونزيع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته، أي بَعُدَ وغاب، النهاية ٥: ٤١، والمراد التاركين لقبائلهم فلا يتابعوها على الشر إذا أرادته أو تنفيهم قبائلهم لذلك.

٩ـ مسند ابن المبارك: ٢١، مجمع الزوائد للهيثمي ١٠: ٢٥٩.

١٠ـ مسند سعد ابن أبي وقاص: ١٦٥، الغرباء: ٥٥، كنز العمال ١: ٣٩٢ و٣: ١٥٣، تفسير ابن كثير٣: ٤٥٧.

١١ـ صحيح مسلم بن الحجاج، كتاب الإيمان: ٢٣٢، والترمذي كتاب الإيمان: ١٣، وابن ماجة كتاب الفتن: ١٥، والدارمي: ٤٢، ومسند أحمد بن حنبل ١: ١٨٤، ٣٩٨ و ٢: ١٧٧، ٢٢٢، ٣٨٩ و ٤: ٧٣.

١٢ـ بحار الأنوار ٨: ١٢.

١٣ـ مسند أحمد ٥: ٢٧٨.

١٤ـ كنز العمال: ٤٦٢٤٨.

١٥ـ كنز العمال: ٤٦٢٧٤.

١٦ـ كنز العمال: ٤٦٢٩٨.

١٧ـ معجم الحديث النبوي: ٤٧٢.

١٨ـ بحار الأنوار ٦٧: ٢٠٠.

١٩ـ النساء: ١٠٠.

٢٠ـ وروي من ليس له حبيب، بحار الأنوار ١٣: ٣٦١ ح٧٦ عن عدة الداعي: ١٠٧.

٢١ ـ السيرة الحلبية ٣: ٢٥٦.

٢٢ـ بحار الأنوار ٢٢: ٤٥٣، جامع الأخبار: ١٢٩ ـ ١٣٠.

٢٣ـ راجع الوسائل ١٥: ٣٤٨ح٢٢، والكافي ٥: ٥٩ح١٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢٤ـ جامع الأخبار: ١٢٩ ـ ١٣٠.
٢٥ـ أمالي الطوسي ٢: ٩٩.
٢٦ـ نهج البلاغة: خطبة ١٩٩.
٢٧ـ أي قال هذا الكلام ثلاث مرات، بحار الأنوار٦٤: ١٦٠ح٤ عن الكافي ٢: ٢٤٢.
٢٨ـ المصدر السابق.
٢٩ـ طه: ١٣١.
٣٠ـ كنز العمال: ٥٩٢٩.
٣١ـ بحار الأنوار ٧٢: ٦٧، ٢٧.
٣٢ـ ميزان الحكمة ٣: ١٠٩٨، عن بحار الأنوار ٧٣: ١٢١، ١١٠.
٣٣ـ البحار ٦٩: ٢٧٢، ومعاني الأخبار: ٣٨٠ ـ ٣٨١.
٣٤ـ ميزان الحكمة ٣: ١٠٩٩، عن نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ١٠٩.
٣٥ـ نهج البلاغة ١: ١٩٨.
٣٦ـ البحار ٦٩: ٢٧٤.
٣٧ـ البحار ٧٨: ٢٠٢.
٣٨ـ ميزان الحكمة ٣: ١٠٩٩، عن غرر الحكم: ٧١٢٤.
٣٩ـ ميزان الحكمة ٣: ١٧١.
٤٠ـ كنز العمال ١: ١٤٢ ح٦٨٦.
٤١ـ ميزان الحكمة ٣: ١٩٦٦، عن الدر المنثور ١: ١٦١.
٤٢ـ الحديد: ٢٠.
٤٣ـ الإسراء: ٨٠.
٤٤ـ نهج البلاغة ١: ٣٧.
٤٥ـ نهج البلاغة ١: ٨٠.
٤٦ـ معجم الحديث النبوي: ٤٧٣.
٤٧ـ خصائص الأئمة للرضي: ١٠٦، شرح ابن أبي الحديد١٨: ٣٤٦.
٤٨ـ أصول الكافي ـ كتاب الإيمان والكفر ـ حقيقة الإيمان واليقين ٢: ٤٤.
٤٩ـ نهج البلاغة ٢: ١٦١.
٥٠ـ الأنعام: ١٦٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠: ٨٧.
٥٢ـ الحديد: ٢٣.
٥٣ـ نهج البلاغة ٢: ١٦٢.
٥٤ـ بحار الأنوار٦٤: ٣٠٩ح٤١.
٥٥ـ بحار الأنوار٦٤: ٣٦٦ح٧٠.
٥٦ـ نهج البلاغة ٣: ٨٤.
٥٧ـ مسند أحمد٣: ١٥٩، صحيح البخاري٣: ٢٢٣، صحيح مسلم٤: ١١٤.
٥٨ ـ أصحاب المذهب الوجودي.
٥٩ ـ أصحاب النظرية الماركسية.
٦٠ـ من أشهر زعماء التيار الوجودي ولد بباريس ١٩٠٥ـ ١٩٩٠م.
٦١ـ مقطع من مناجاة المريدين، بحار الأنوار٩١: ١٤٨، الصحيفة السجادية بتحقيق الابطحي: ٤١٢ ط١، ١٤١١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com